بداية القرن الخامس عشر الهجري . .

وواقع المسلمين

بقلم أ. متولي موسى

كثر الحديث في الإذاعات وتزايدت المقالات في المجلات وتعدّدت المؤتمرات التي تتحدّث عن القرن الخامس عشر الهجري ، وإذا قارن الإنسان ما يُكتب ويقال بواقع المسلمين لوجد عجبا .. حيث أنّنا –نحن المسلمين– نعلم أنّ الله عزَّ وجلَّ ذمّ الذين يقولون ولا يعملون ، ورغم ذلك فنحن ماضون في الحديث عن الهجرة التي لا نعيشها تأريخــاً ولا نمارسها حدثاً ، ولا ارتفعنا إلى مستواها وتدبّرنا مغزاها .. نجد أنّ الذين يتحدّثون عن الهجرة لم يعدّوا أنفسهم لما أعدّ له أصحاب الهجرات ذات الأثر في تاريخ البشرية

انقضى منذ عهد هجرة محمد ﷺ إلى المدينة أربعة عشر قرناً ، ولو تدبّرنا ما صنع المسلمون الأوائل بعد الهجــرة خلال أربعة عشر شهراً ، وقارناه بما صنع المتأخّرون في أربعة عشر عقداً (١٤٠ سنة) لوجدنا عجبــا .. فــالأولون وضعوا قواعد الدولة الإسلاميّة ، وخرج الرسول ﷺ بعد أن عقد العهود والمواثيق في المدينة .. خرج في أربع غزوات وجهّز ثلاث سرايا ولم يصب من المسلمين أحد بسوء كما ورد في سيرة ابن هشام[1] وأما نحن المتأخّرون فقد ضيّعنا دولة الخلافة ، وخضنا مع أعداء الإسلام معارك خاسرة ، وفي الوقت نفسه خاض وما يزال يخوض الإخوة معــارك ضدّ بعضهم البعض لإضعاف قوتهم وخدمة أعداء الإسلام والمسلمين

ولو قارنّا ما صنع المسلمون الأوائل في أربعة عشر عاماً بعد الهجرة بما صنع المتأخرون في عشرة قــرون لوجــدنا عجبا .. فالأوّلون حققوا الانتصارات تلو الانتصارات فتتابعت الفتوحات رغم قلّة العدد وضعف الإمكانات ، ودخل الناس في دين الله من مشارق الأرض ومغاربها ، وأمّا المتأخّرون – وا إسلاماه– فقد حققوا الهزيمة تلو الهزيمــة وهــم يخرجون من أرضهم منطقة بعد منطقة وما خبر الأندلس المفقود ببعيد ، ونحن نعيش الآن مأساة فلسطين ، والبقيــة تأتي على أيدي الطواغيت المستبدّين ، والمتحكّمين في رقاب المسلمين ، رغم كثرة العدد وكثرة الإمكانات

وقد يتساءل متسائل : لم هذا كلّه ؟ .. وما هو الفارق بين مسلميّ الأمس واليوم ؟ والإجابة كما ذكرهــا ربّ الأوّلين والآخرين مصوّراً لنا إياها ولله المثل الأعلى : إنّ الأوّلين الذين آمنوا بالله وارتبطوا به ارتفعــوا إلى مــستوى الهجرة في سبيله ، وأعدّوا لها العدة فمثلهم كمثل ﴿ **الْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ** ... ﴾[2] ، أما الآخرون فقد

ارتبط بعضهم بالشرق والبعض الآخر بالغرب ، فأصبح مثلهم كمثل الذي خبث ﴿ ... **وَالَّذِي خَبُثَ لا يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِدًا** ... ﴾[٣]

وسنّة الله في الكون ماضية ، إذا أراد الإنسان أن يخرج من حياة الذلّ إلى حياة الكرامة ، فعليه أن يعدّ لذلك العدّة وصدق الله تعالى ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً** ... ﴾[٤] .. فهل نحن على استعداد أن نعدّ العدّة للخروج ممّا نحن فيه من ذلّ وهوان ؟ ..

إنّنا نتحدّث عن الهجرة مع توالي القرون ولا نحاول أن نعيشها بعد أن سيطر الخوف على القلوب ، وأصبحنا لا نستشعر نصرة الله عزَّ وجلَّ للذين يهاجرون في سبيله ، ارتبطنا بالشرق والغرب فتصوّرنا أن التمكين للنظم يكون بوجود طائرات للتجسّس أو الحماية ، أو بإبرام معاهدات للتحالف والصداقة .. و لم يعد الارتباط بالله عزَّ وجلَّ الذي قال لنا في محكم آياته ﴿ **إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ... ﴾[٥]

يجب ألاّ يكون الحديث عن الهجرة كحديث عن أحداث وواقع لا يرضى عنه الله ، وعلى ذلك يجب أن نستوعب الهجرة في سبيل الله على أنها سنّة من سنن الله في هذا الكون ، يعيشها البشر في كل زمان طالما هناك حقّ وباطل ، ولقد أجمل الله عزَّ وجلَّ لنا بيان هذه السنّة في قوله : ﴿ **وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا** ... ﴾[٦] ، وفصّلها تعالى مع عدد من الأنبياء والمرسلين وذكرها في قصص الأوّلين ليعتبر بذل الآخِرون ، فقال تبارك وتعالى على لسان الناصح الذي جاء بخبر موسى عليه السلام : ﴿ ... **إِنَّ الْمَلأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ** ﴾[٧] ، وبيّنها في جواب القوم الضالّين فقال : ﴿ **فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوا آَلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ** ... ﴾[٨] ، وقال آخرون كما ذكر القرآن الكريم : ﴿ ... **لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آَمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا** ... ﴾[٩]

وأخبر الله عزَّ وجلَّ رسوله ﷺ بمكر الأعداء فقال : ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ** ... ﴾[١٠] ، وعندما قال ورقة بن نوفل لرسول الله ﷺ : (والذي نفسي بيده إنّك لنبيُّ هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى ، ولتكذبنّه ، ولتؤذينّه ، ولتخرجنّه ، ولتقاتلنّه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرنّ الله نصراً يعلمه)[١١] ، لم يقل ذلك منجّماً ، وإنّما استيعاباً لسنة الله في معرفة ما يقع في أصحاب الدعوات المخلصة لله عزَّ وجلَّ على مدار التاريخ

يجب أن يستوعب العاملون للإسلام الهجرة في سبيل الله وعلاقتها بالرزق ﴿ **وَمَنْ يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً** ... ﴾[١٢] ، فإبراهيم عليه السلام حينما أسكن السيدة هاجر وولدها إسماعيل عليه السلام بجوار بيت الله الحرام ، أسكنهما في واد ليس فيه زرع ، ولأنّ الارتباط بالله والهجرة لإقامة الصلاة تكفّل الله عزَّ وجلَّ بالرزق

والحماية .. كما أنّ يونس عليه السلام حينما ألقي به في اليمّ ، لم يكن يصدّق الذين ألقوه أنّه يعيش في بطن الحوت ، ولكنّ الله عزَّ وجلَّ الذي خلقه ، هو الذي تكفّل بحياته ورزقه .. كما أنّ الله عزَّ وجلَّ قادر -إن شاء- على التمكين للمستضعفين الذين يرتبطون به ولا يركنون للظالمين ، فموسى عليه السلام الذي خرج من مصر خائفاً يرتقب كان لسانه يلهج بالدعاء ﴿ **رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ** ... ﴾[١٣] .. ولم يكن فرعون يصدّق بأنّ هذا الذي أُخرج خائفاً ، يعود مرة أخرى منتصراً بفضل الله وقدرته ، ويكون فرعون المثال والعبرة ﴿ **فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ۞ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى** ﴾[١٤] .. وحينما دبّر إخوة يوسف المكيدة له وألقوه في غيابة الجبّ ليخلو لهم وجه أبيهم ، لم يفكّروا بل لم يصدّقوا أنّ يوسف سوف يخرج من الجبّ ويُمَكَّنَ له في الأرض ، ثمّ يلتقون به لقضاء مصالحهم

وينبغي أن يستوعب الطواغيت دروس الهجرة ويعلموا أنّ النتيجة الطبيعية لما يصنعون من فساد في البلاد وضرب للعاملين للإسلام أو تشريدهم وطردهم ، ستكون الويل لهم هم ، وسيحلّ عليهم عذاب الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلا نَاصِرَ لَهُمْ** ﴾[١٥]

ولو علم قوم لوط عليه السلام أنّه بعد خروجه سينزل بهم العذاب ما أخرجوه ، بل لتمسّكوا به وأبقوه ، كما أنّ أهل مكة لو علموا أنّ محمداً ﷺ سيعود إليها فاتحاً وسيقعون في قبضته أسرى ما أخرجوه .. فهل من رجوع إلى سبيل الله ؟ ..

كما أنّ على الذين يركنون إلى الظالمين والذين يعيشون مستذلّين خوفاً من التعذيب والطرد والقتل في سبيل الله ، أن يستوعبوا دروس الهجرة ويتدبّروا قول الله عزَّ وجلَّ : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا** ... ﴾[١٦] ، والله عزَّ وجلَّ ينادي عباده : ﴿ **يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ ۞ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾[١٧] .. ورد في تفسير الطبري : ﴿ **إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ** ﴾ إذا عُمِلَ بمكان منها بمعاصي الله فلم تقدروا على تغييره ، فاهربوا منه .. وورد في تفسير (في ظلال القرآن) : (إنّ هاجس الأسى لمفارقة الوطن هو الهاجس الأوّل الذي يتحرك في النفس التي تدعى للهجرة ، ومن هنا يمسّ الله قلوبهم بهاتين اللمستين : بالنداء الحبيب ﴿ **يَا عِبَادِيَ** ﴾ وبالسعة في الأرض ﴿ **إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ** ﴾ ، وما دامت كلّها أرض الله ، فأحبّ بقعة منها إذن هي التي يجدون فيها السعة لعبادة الله وحده دون سواه . ثم يمضي يتتبّع هواجس القلوب وخواطرها فإذا الخاطر الثاني هو الخوف من خطر الهجرة ، ومن هنا يجيء اللمسة الثانية : ﴿ **كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ** ﴾ فالموت حتم في كلّ مكان ، فلا داعي أن يحسبوا حسابه ، وهم لا يعرفون أسبابه ، وإلى الله المرجع والمآب ، فهم مهاجرون إليه في أرضه الواسعة ، وهم عائدون إليه في نهاية المطاف ، وهم عباده الذين يُؤْويهم إليه في الدنيا والآخرة ، فمن ذا يساوره الخوف ، أو

يهجس في ضميره القلق ، بعد هذه اللمسات ؟)[١٨] .. انتهى كلام سيّد رحمه الله .. وإنّني أتــساءل عــن الــذين استوعبوا نداء الله لهم .. أين هم ؟ .. وكم عددهم ؟؟ ..

وأخيراً في هذه العجالة ، فهذا هو واقع المسلمين الذين يتحدّثون ويكتبون ، وواقع الذين يسمعون ويقــرؤون لم يرتفعوا إلى مستوى الهجرة ولم يعيشوها ، بل يخيّل إليّ أنّ هذا الواقع هو الذي اشتكى منه رسول الله ﷺ وسجّله الله تبارك وتعالى شاهداً على قوم محمد ﷺ حيث يقول : ﴿ ... **يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا** ... ﴾[١٩]، فنحن في غالب أحوالنا ، لا نعرف إلاّ هذا النوع من الهجرة وللأسف فإنّها هجرةٌ لا يرضى عنها الله ورســوله !!! فهل نحن من هَجْرِ القرآن منتهون وإلى الهجرة في سبيل الله عزَّ وجلَّ راجعون ؟ ..

الهوامش :

---

(١) تهذيب سيرة ابن هشام لعبد السلام هارون ، أوّل الغزوات حتى غزوة بدر الأولى ، ص ١٤٧-١٤٩ .

(٢) و (٣) [الأعراف : ٥٨]

(٤) [التوبة : ٤٦]

(٥) [التوبة : ٤٠]

(٦) [إبراهيم : ١٣]

(٧) [القصص : ٢٠]

(٨) [النمل : ٥٦]

(٩) [الأعراف : ٨٨]

(١٠) [الأنفال :٣٠]

(١١) تهذيب سيرة ابن هشام ص ٦٠ .

(١٢) [النساء : ١٠٠]

(١٣) [القصص : ٢١]

(١٤) [النازعات : ٢٥-٢٦]

(١٥) [محمد : ١٣]

(١٦) [النساء : ٩٧]

(١٧) [العنكبوت : ٥٥-٥٦]

(١٨) سيّد قطب ، في ظلال القرآن ، الطبعة الثانية ، دار الشروق ، المجلد الخامس ص ٢٧٤٩

(١٩) [الفرقان : ٣٠]